

القسم الأول

الفصل الأول

عبد الرب

باسم الرب القدير، أقوم أنا جين، صاحب جوانفيل، ونائب شامبين بإملاء سيرة حياة ملكنا الطيب، القديس لويس، حيث سأدون ما رأيته وما سمعته خلال ست سنوات كنت فيها بالحج برفقته فيما وراء البحر، وبعد عودتنا إلى فرنسا، لكن قبل أن أتحدث إليكم عن أعماله العظيمة، وشجاعته البارزة، سوف أخبركم عما لاحظته أنا شخصياً بشأن تبشيره الجيد، وأحاديث القداسة لديه، حتى توضع بنظام لائق لمنفعة الذين سوف يتولون قراءة هذا الكتاب.

لقد أحب هذا الرجل القديس ربنا بكل عواطفه، واحتذى في كل أعماله حذوه، وهذا واضح من حقيقة أن ربنا مات في سبيل الحب الذي حمله لشعبه، وهكذا عرض الملك لويس حياته للخطر، وفعل ذلك مراراً للسبب نفسه، وكان الخطر أيضاً مما يمكن تجنبه، وذلك حسبما سأظهر لكم فيما بعد.

وتجلى الحب العظيم الذي حمله الملك لويس لشعبه فيما قاله — عندما تمدد مريضاً بشكل خطر في فونتبلو — لابنه الأكبر، مولاي لويس، حيث قال: «ولدي العزيز، إنني أتوسل إليك بإخلاص أن تجعل نفسك محبوباً من قبل شعبك كله، ذلك أنني أؤثر أن آتي باسكوتلندي من اسكوتلندا ليتولى حكم شعب هذه المملكة بعدل واستقامة، على أن تتولى حكمه بشكل فاسد، أمام نظر جميع العالم»، فضلاً عن هذا أحب هذا الملك المستقيم الصدق كثيراً، حتى أنه — كما سأبين لكم مؤخراً — لم يوافق مطلقاً على الكذب على المسلمين، بالنسبة لكل ميثاق عقده

معهم.

وكان كبير الاعتدال في طعامه، فلم أسمعته في أي يوم من أيام حياتي، يأمر بطعام خاص لنفسه، كما يفعل الناس الأغنياء وذوي المكانة، وعلى العكس كان دوماً يأكل بحمد كبير كل ما كان طهاته قد أعدوه له ووضعوه أمامه، وكان مثل ذلك معتدلاً بكلامه، فلم أسمعته، في أي مناسبة من المناسبات، يتحدث بشكل شرير عن أي إنسان، كما لم أسمعته قط يتفوه باسم الشيطان، وهو اسم يستخدم كثيراً بشكل عام في أرجاء المملكة، وأعتقد أن هذا الاستخدام، ليس مرضياً للرب.

ولقد اعتاد على إضافة الماء إلى خمرته، وفعل ذلك بشكل معتدل، وفقاً لما تسمح له به قوة الخمرة، وسألني عندما كنا في قبرص لماذا لاأمزج خمرتي بالماء، فأجبتُه بأن مرد ذلك لنصيحة أطبائي، الذين أخبروني أنني أمتلك رأساً قاسياً ومعدة باردة، لذلك لايمكن أن أسكر، فأجابني بأنهم خدعوني، لأنني إذا لم أتعلم مزج خمرتي بالماء وأنا شاب بعد، ورجبت بفعل ذلك في شيخوختي فإن النقرس وأوجاع المعدة سوف يستبدان بي، ولن أكون بصحة جيدة مطلقاً، فضلاً عن هذا إذا ما تابعت شرب الخمرة غير المزيجة عندما أكون شيخاً، سوف أصبح مخموراً كل ليلة، وهذا أمر ملفوظ بالنسبة لأي رجل شجاع، أي أن يكون في مثل هذه الحالة.

وسألني الملك مرة عما إذا كنت أرغب بالتمجيد في هذه الدنيا، وأن أدخل الجنة عندما أموت، فأجبتُه إنني أرغب بذلك، فقال: «إذا كنت تريد ذلك، عليك أن تتجنب عن قصد قول أي شيء أو فعله، إذا ما أصبح معروفاً بشكل عام، ستشعر بالخجل بالاعتراف بذلك بقولك: أنا فعلت هذا، أو: أنا قلت ذلك»، وأخبرني أيضاً بعدم الاعتراض على أي شيء قيل بحضوري أو وضعه موضع التساؤل، ما لم يقد الصمت بالفعل إلى الموافقة على أي شيء خطأ، أو مضرًا بنفسي، لأن الكلمات

القاسية غالباً ما تقود إلى الخصام، الذي ينتهي بموت عدد لا يحصى من الناس.

وغالباً ما قال يتوجب على الناس أن يلبسوا أنفسهم ويسلحوها بطريقة لاتجعل الرجال الناضجين في السن يقولون أبداً بأنهم أنفقوا كثيراً جداً على ملابسهم، أو أن يقول الشباب بأنهم قتلوا وأنفقوا قليلاً، وقد رددت هذا الكلام على مسامع ملكنا الحالي عندما كان يتحدث عن الملابس المطرزة بإحكام التي عم استخدامها هذه الأيام، ولقد أخبرته أننا خلال كامل رحلتنا فيما وراء البحر، لم أر قط مثل هذه الملابس المطرزة، لاعلى الملك ولا على سواه، وأخبرني أن لديه عدة أثواب من هذا النوع، وقد طرزت عليها رنوكه، وأنهم قد كلفوه ثمانمائة «ليرة باريسية»، وأخبرته كان أجدى بالنسبة له لو أنه أنفق أمواله بشكل أفضل في أن أعطاهم للرب، وجعل ثيابه تصنع من «الساتان» الصرف، وعليها شعاره كما كان أبوه يفعل.

وبعث الملك لويس خلفي في إحدى المرات وقال: «لديك عقل نبيه وذكي مما يجعلني لا أجرؤ على الحديث معك عن أشياء تتعلق بالرب، لذلك استدعيت هذين الراهبين إلى هنا، لأنني أريد أن أسألك سؤالاً»، ثم قال: «أخبرني أيها النائب ما هي فكرتك عن الرب؟ فأجبته: «إنه ياصاحب الجلالة شيء ممتاز جداً، وما من شيء يمكن أن يكون أفضل منه»، فقال: «بالفعل لقد أعطيتني جواباً جيداً جداً، لأن هذا التعريف نفسه قد جاء تماماً في هذا الكتاب الذي هو بيدي».

ثم استطرد يقول: «إنني أسألك الآن أيهما تفضل: أن تكون مصاباً بالجدام، أو أن تقترف إثماً عظيماً؟، وأجبته، أنا الذي لم أكذب عليه قط: «إنني بالبحري أفضل أن أقترف ثلاثين ذنباً عظيماً على أن أصبح مجذوماً»، وفي اليوم التالي، عندما لم يعد الراهبان لديه، استدعاني إليه، وجعلني أجلس عند قدميه وقال لي: «لماذا قلت لي ذلك البارحة؟»

فأخبرته أنني ما زلت أقول ذلك، فقال: لقد تكلمت من دون تفكير، ومثل إنسان أحمق، وعليك أن تعلم أنه لا يوجد جذام أقدر من أن تكون مذنباً ذنباً عظيماً، لأن الروح في ذلك الوضع مثل الشيطان، لذلك ليس هناك من جذام يمكن أن يكون شراً مثل ذلك، يضاف إلى هذا، أن الإنسان عندما يموت يبرأ جسده من الجذام، لكنه إذا مات بعد اقترافه لذنوب عظيم، إنه لا يمكن أن يكون متأكداً طوال حياته بأنه قد كفر عن ذنبه بما فيه الكفاية حتى يغفر الرب له، وبالمحصلة، لا بد أن يكون خائفاً جداً خشية أن يلازمه جذام الذنب، طيلة بقاء الرب في الفردوس»، ثم أضاف «لذلك إنني أتوسل إليك بقدر ما أملك من إخلاص، ومن أجل محبة الرب، ومحبي، أن تعود قلبك على أن تفضل أي شر يمكن أن يحدث للجسد، سواء أكان ذلك جذام أو أي مرض آخر، وعلى أن تدع أي إثم أخلاقي يستولي على روحك».

وسألني الملك لويس في مرة أخرى عما إذا كنت قد غسلت قدمي أي فقير في يوم الخميس المقدس، فأجبت بدهشة: «ما هذه الفكرة المرعبة، يا صاحب الجلالة، إنني لن أغسل قدمي واحد من هؤلاء الأدياء»، فقال: «حقاً، هذا خطأ عظيم أن تقوله، لأنه يتوجب عليك عدم ازدراء أن تفعل ما فعله ربنا نفسه، وضربه مثلاً لنا، لذلك إنني أتوسل إليك، من أجل محبة الرب أولاً، ثم من أجل محبي، أن تعود نفسك على غسل قدمي الفقير».

وأحب الملك الطيب كثيراً جميع أصناف الناس الذين آمنوا بالرب وأحبوه، حتى أنه عين جايل لي برن Gilles le Brun ، الذي لم يكن من أهل مملكته كافلاً أعلى لمملكة فرنسا، لأنه احتل مكانة سامية وسمعة عالية لإيانه بالرب، ولتكريسه نفسه لخدمته، ومن جانبي إنني أعتقد أنه يستحق تماماً تلك السمعة، ووجهت الدعوة إلى شخص آخر هو الأخ روبرت دي سوربون، الذي كان مشهوراً لسمعته الطيبة

ولثقافته، وذلك من أجل تناول الطعام على المائدة الملكية.

وحدث في أحد الأيام أن كان كاهناً جيداً جالساً إلى جنبي أثناء تناول الغداء، وكنا نتحدث لبعضنا بعضاً بشكل هادىء، فانتقدنا الملك وقال: «ارفعاً صوتيكما، أو أن صحبكما سيظنون أنكما تتناولوهم بالسوء، وإذا كنتما تتحدثان على المائدة بأشياء تمنحنا السرور، فقولاً ذلك بصوت مرتفع، أو إلزما الصمت».

وعندما كان الملك يشعر بالانشراح والسرور، كان يطلق عليّ الأسئلة، من ذلك على سبيل المثال: «أيها النائب هل يمكنك أن تعطيني الأسباب لماذا رجل علماني عاقل ومستقيم أفضل من راهب؟»، وهنا كانت تبدأ المناقشة بيني شخصياً وبين الأخ روبرت، وعندما كنا نتجادل لوقت طويل، كان الملك ينطق بالحكم، حيث كان يقول: «الأخ روبرت، أتمنى لو أنني أعرف أنني رجل عاقل ومستقيم، وتأمل أنني كذلك بالفعل، وبإمكانك أن تأخذ جميع البقية، لأن الحكمة والجودة سمعتان ساميتان جداً، حتى أن التلطف باسمهما يترك طعماً طيباً في الفم».

هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان دائماً يقول: إنه عمل شرير أن تأخذ أملاك الآخرين، ثم يتابع القول: «وأن ترد، هو أمر صعب لأن تفعله، لابل حتى أن تلتفظ بالكلمة نفسها سوف تتحسرج في البلعوم، لأن فيها «ر» الرد، والراء هذه مثل عملية الجرف للشيطان، الذي يود أن يجذب إلى نفسه كل من يودون «رد» ما أخذوه من الآخرين، زيادة على هذا يفعل الشيطان هذا ببراعة كبيرة، لأنه يعمل اعتماداً على مغتصبين كبار، وعلى لصوص عظام، حتى أنهم يتظاهرون بإعطاء الرب ما ينبغي رده إلى الآخرين».

وأعطاني الملك في إحدى المناسبات رسالة لآخذها إلى الملك ثيوت، نبّه فيها صهره، لأن يأخذ حذره، خشية أن يضع ثقلاً على روحه بانفاقه

مبلغاً كبيراً من المال على البيت الذي كان بينه «للآباء المبشرين» في بروفانس، وقال الملك: «يتعامل، الرجال العقلاء مع ممتلكاتهم، مثل ما يتوجب على منفذي الوصية أن يفعلوا، وأول شيء يفعله المنفذ هو سداد جميع الديون المتوجبة على المتوفى، ورد جميع الممتلكات العائدة للآخرين، ووقتها يصبح حراً في التصرف بما بقي لديه من مال في مقاصد الإحسان».

وحدث أن كان الملك القديس في أحد أيام العنصرة في كوربيل Cor-beil ، حيث كان جميع الفرسان قد تجمعوا، ونزل بعد الغداء إلى الساحة تحت البيعة، وكان واقفاً عند المدخل يتحدث مع كونت بريتاني، والد الكونت الحالي — حفظه الرب — عندما جاء الأخ روبرت دي سوربون، ليبحث عني، وأمسك بطرف عباوتي وقادني نحو الملك، ولهذا قلت للأخ روبرت: «ماذا تريد يا سيدي الطيب مني؟» فردّ: «أود أن أسألك فيما إذا كان الملك جالساً في هذه الساحة، فأنت قد ذهبت وجلست على مقعده في مكان أعلى منه، ولذلك ينبغي أن تلام كثيراً لفعلك ذلك؟»، وأخبرته فعلاً إنني أستحق ذلك، ثم قال: «من المؤكد أنك تستحق اللوم، لأنك ترتدي من الثياب ما هو أئمن من ثياب الملك، ذلك أنك ترتدي عباءة من الفراء الجيد، ذات غطاء أخضر ممتاز، وهو لا يرتدي مثل هذه الأشياء»، وأجبت: «الأخ روبرت، إذا سمحت لي بالكلام، إنني لم أفعل شيئاً يستحق اللوم في ارتدائي للملابس خضراء وفراء، لأنني ورثت الحق بمثل هذا النوع من اللباس عن أبي وعن أمي، لكن من جهة أخرى، أنت جدير أكثر بالملامة، لأنه مع أن والدك كانا من العامة، لقد تخلّيت عن نمطيهما من الثياب، وترتدي الآن ثياباً من الصوف أفضل مما يرتديه الملك نفسه»، ثم أمسكت بالطرف الأدنى من المعطف الخارجي الذي كان يرتديه، وبطرف معطف الملك، وقلت للأخ روبرت: «إنظر، إذا كنت أنا لا أقول الحق»،

ووقتها بدأ الملك ينحاز إلى جانب الأخ روبرت، وقال كل ما أمكنه قوله للدفاع عنه وبعد وقت قصير، استدعى الملك ابنه الأمير فيليب — والد ملكنا الحالي — والملك ثيوت، ثم إنه جلس عند مدخل محرابه، واعتمد على الأرض بيديه، وقال للشابين: «اجلسا هنا، بملاصقتي تماماً، حتى لا يمكن سماع ما يدور بيننا»، لكنهما احتجا قائلين: «لكن يا مولانا يجب ألا نتجرأ على الجلوس ملاصقين لك»، ثم قال الملك لي: «أيها النائب اجلس هنا»، وقد أطعته وجلست ملاصقاً له حتى أن ثيابي لامست ثيابه، ثم جعل الإثنين الآخرين يجلسان بعدي، وقال لهما: «لقد تصرفتما بشكل عظيم الخطأ، فأنتما ولداي، ومع ذلك لم تبادرا إلى تنفيذ ما أمرتكما به لحظة إخباركما بذلك، أرجوكم ألا يصدر عنكما مثل هذا ثانية»، وأكدوا له أن ذلك لن يكون.

ثم قال الملك لي بأنه دعانا لنكون معاً ليعترف بأنه دافع خطأ عن الأخ روبرت ضدي، وقال: «لقد رأيته قد غلب على أمره، وأنه كان في أمس الحاجة إلى مساعدتي، وعلى كل حال ينبغي ألا تعطي أهمية كبيرة لأي شيء ربما قلته في الدفاع عنه، ومثلما قال النائب محقاً، عليكما أن تلبسا بشكل جيد، وبشكل يتوافق مع أوضاعكما، وبذلك سوف تحبكما زوجتيكما أكثر، ولسوف يحترمكما رجالكما أعظم، لأنه مثلما قال فيلسوف عاقل: ينبغي أن تكون ملابسنا من نوع ودرجة إذا ما رأها المجربون العقلاء لن يقولوا أنفقنا كثيراً عليها، وإذا ما رأها الشباب لن يقولوا أنفقنا قليلاً عليها» .

ولسوف أحدثكم هنا عن واحد من الدروس علمني إيّاه الملك أثناء رحلتنا عائدين من بلاد ما وراء البحر، فقد حدث أن جنحت سفيتنا على الصخور خارج جزيرة قبرص وذلك بوساطة ريح تعرف باسم «الجريان Garbino» التي لم تكن واحدة من الرياح الأربع، ولدى تلقي السفينة للصدمة أصيب البحارة بالهلع، فمزقوا ثيابهم،

وتنفوا لحاهم، ووثب الملك من فراشه عاري القدمين — لأن الوقت كان ليلاً — ولم يكن يرتدي شيئاً سوى مئزره، ومضى نحو تمثال ربنا على المذبح، وتمدد على الأرض ماداً ذراعيه ليكون على شكل صليب أمامه، وفعل ذلك فعل إنسان لم يكن يتوقع شيئاً سوى الموت.

ودعاني الملك في اليوم التالي لهذه الحادثة المنذرة، وانفرد بي، وتحدث إليّ وحدي، وقال لي: «لقد أرانا الرب أيها النائب لمحة خاطفة من عظيم قدرته، لأن واحدة من هذه الرياح الصغيرة، التي هي صغيرة بالفعل إلى درجة أنها بالنادر استحقت اسماً، كادت أن تغرق ملك فرنسا، وأولاده، وزوجته، ورجاله، ولقد قال القديس أنسلم Anselm بأن مثل هذه الأشياء تأتي بمثابة إنذار من ربنا، وكأن الرب قصد أن يقول لنا: انظروا كم كان من السهل عليّ إنزال الموت بكم لو أن ذلك كان ما أردته، وقال القديس: أيها المولى الرب لماذا أربعتنا هكذا؟ لأنك عندما فعلت ذلك، لم يكن ما فعلته لمنفعتك، كما أنه لم يكن لصالحك، لأنك لو قضيت علينا جميعاً بالخسران، لما كان من هو أفقر منك، ولن يكون هناك من هو أغنى منك عندما قضيت بإنقاذنا، وبناء عليه إن الإنذار الذي أرسلته إلينا لم يكن لمنفعتك، بل لمنفعتنا، إذا ما عرفنا كيف نستفيد منه».

ثم قال الملك: «ولهذا دعونا نأخذ هذا الإنذار الذي أرسله الرب إلينا، وفق مايلي: إذا كنا نشعر في قلوبنا أو في أجسادنا بأننا غير مرضيين له، سوف نتخلص من ذلك بدون تأخير، هذا من جانب، ومن جانب آخر، إذا كان بإمكاننا أن نفكر بأي شيء سوف يرضيه، دعونا ننظر في كيفية تنفيذه بسرعة كافية، وإذا ما فعلنا ذلك سوف يمنحنا ربنا المباركة في هذا العالم، ولنسوف تكون نعمته أعظم في العالم الآخر، وأكبر مما نستطيع أن نفكر، لكن إذا لم نفعل كما ينبغي، فإنه سوف ينزل بنا مثلما ينزله السيد الجيد بعبده غير الوفي، لأنه إذا لم يقم هذا العبد بإصلاح

سبله، بعدما تلقى الإنذار، سوف يعاقبه مولاه بالموت، أو حتى بعقوبات تحملها أصعب من ذلك» .

ثم قلت أنا جين جوانفيل: «ليكن الملك الذي يحكم الآن متنبهاً، فقد نجا من مخاطر عظيمة بقدر ما كنا عرضة له، أو حتى أعظم، ولهذا عليه أن يتعد عن اقتراف الخطأ، وهذه الوسيلة لن يضربه الرب بقسوة لا في نفسه ولا في ممتلكاته» .

وفي حديث كان للملك معي، فعل هذا القديس كل ما في استطاعته لإعطيني اعتقاداً ثابتاً في المبادئ الأساسية للمسيحية، حسباً أعطيت إلينا من قبل الرب، واعتاد أن يقول بأننا ينبغي أن نمتلك عقيدة راسخة في جميع أركان الإيمان، بحيث لا الخوف من الموت أو من أي أذى يمكن أن يحدث لأجسادنا يمكن أن يجعلنا قابلين بأن نقف ضدهم بكلمة أو بفعل، وكان يضيف: «يبدل العدو قصارى جهده وهو يعمل بذكاء عندما يكون بعض الناس على حافة الموت فيجرب كل ما بإمكانه ليجعلهم يموتون مع بعض الشك في عقولهم حول بعض النقاط في ديانتنا، وهو يقوم بهذه الأعمال المضادة ببراعة لإدراكه أنه لا يمكنه أن ينتزع فضيلة أي عمل جيد عمله إنسان، وهو يعرف أنه قد خسر روح كل إنسان، إذا ما مات في ظل الإيمان الحقيقي» .

وكان الملك يقول: «ولهذا إن واجبنا هو أن ندافع عن أنفسنا وأن نحميها ضد المصائد، بأن نقول للعدو، عندما يرسل إلينا مثل هذه الغواية: ابتعد، فإنك لن تستطيع تضليلي بإبعادي عن إيماني الراسخ بأركان عقيدتي، حتى لو قمت بتقطيع جميع أطرافي، سأظل أعيش مؤمناً ولسوف أموت مؤمناً حقيقياً، وكل من يفعل ذلك يتغلب على الشيطان بالسلاح نفسه تماماً، وهو السلاح الذي أخذ به عدو الإنسانية لتدمير الإنسان» .

وكان الملك يقول أيضاً بأن الديانة المسيحية حسبها هي محددة بالعقيدة هي شيء ينبغي أن نؤمن به إيماناً مطلقاً حتى لو قام إيماننا فيها على هرطقة، وحول هذه النقطة سألني: ما هو اسم أبيك، فأخبرته بأن اسمه كان سمعان، فما كان منه إلا أن سألني كيف عرفت ذلك، ورددت عليه بأنني متأكد من ذلك، وأؤمن بذلك بدون شك، لأن أمي أخبرتني به وأكدته لي، وعندها قال: «ينبغي أن يكون لديك إيماناً راسخاً بجميع مبادئ إيماننا اعتماداً على شهادة الرسل، وفقاً لما سمعته يغنى يوم الأحد في العقيدة» .

وأعاد الملك في إحدى المناسبات على مسامعي، ما أخبره به وليم أسقف باريس حول أحد اللاهوتيين البارزين الذي جاء لرؤيته، وقال هذا الرجل للأسقف بأنه يود أن يتحدث معه، فقال له الأسقف: «تكلم بحرية وكما تريد يا سيد»، وعندما — على كل حال — حاول اللاهوتي أن يتحدث إليه انفجر باكياً، ولهذا قال الأسقف له: «قل ما تريد قوله يا سيد، ولا تخف، ما من أحد مهما كان مذنباً إلا ويشمله عفو الرب»، فقال اللاهوتي: «في الحقيقة يا سيدي لا يمكنني التحكم بدموعي، خشية أن أكون مرتدًا، لأنني لا يمكنني إرغام قلبي على الاعتقاد بالقربان المقدس الموضوع على المذبح، وذلك وفق الطريقة التي تقول بها الكنيسة المقدسة، ومع هذا إنني أعرف تماماً بأن هذا إغواء من العدو» .

فقال الأسقف: «أرجوك أخبرني يا سيد، هل تشعر بأي سرور عندما يعرضك العدو إلى هذا الإغواء؟ فقال اللاهوتي: «على العكس يا سيدي، فهذا يضايقني أكثر من أي شيء ممكن»، فقال له الأسقف: «والآن سوف أسألك فيما إذا كنت تتقبل أي ذهب أو فضة إذا ما عرضنا عليك بشرط أن تسمح لفمك بالتفوه بأي قذف ضد القربان المقدس فوق المذبح، أو ضد أي قداس من قداسات الكنيسة المقدسة؟» فقال الرجل الآخر: «يا سيدي يمكن أن أؤكد لكم أن ما من شيء في

الدنيا يمكن أن يغريني بفعل ذلك، وإنني بالحري أؤثر أن يبتر واحد من أطرافي عن جسدي على أن أوافق على مثل هذا الشيء» .

فقال الأسقف: «سوف أقوم الآن بمقاربة الموضوع مقارنة مختلفة، فأنت تعرف أن ملك فرنسا في حالة حرب مع إنكلترا، وتعلم أيضاً أن أقرب قلعة من خط الحدود بين المملكتين هي قلعة روشيل Rochelle في بواتو، وهكذا سوف أسألك سؤالاً: افترض بأن الملك قد أقامك شحنة لقلعة روشيل، وأقامني مسؤولاً عن قلعة مونتلهيري -Montl- heri ، التي هي في قلب فرنسا، حيث تعيش البلاد بسلام، فلمن تعتقد أن الملك سوف يشعر بالدين العظيم عند انتهاء الحرب: لك أنت الذي حميت لى روشيل بدون خسائر، أو لي أنا الذي بقيت بأمان في مونتلهيري؟ فصرخ اللاهوتي قائلاً: «لماذا، باسم الرب يا سيدي، إلي، فأنا توليت حماية روشيل، ولم أخسرها لصالح الأعداء» .

فقال الأسقف: «يا سيد إن قلبي مثل قلعة مونتلهيري، لأنني لم أتعرض لا للإغواء ولا للشك فيما يتعلق بالقربان المقدس فوق المذبح، ولهذا السبب سأخبرك فيما إذا كان الرب مديناً لي بأية نعمة لأن إيماني مصون وليس فيه شك، إنه مدين لك بأربعة أضعاف أكثر مما هو مدين لي، فأنت الذي حفظك قلبك من الهزيمة عندما تعرض للمشاكل، ولديك — زيادة على هذا — نوايا طيبة نحوه، وأنه لا المنافع الدنيوية، ولا الخوف من أذى يمكن أن يلحق بجسدك، يمكن أن يغريك بالتخلي عنه، ولذلك أقول لك: كن مطمئناً، لأن وضعك يرضي الرب أكثر من وضعي»، وعندما سمع اللاهوتي هذا، رجع أمام الأسقف، وهو يشعر بالسلام في نفسه، وبالرضا التام.

وأخبرني الملك مرة كيف ذهب عدة رجال من الألبجيسين إلى كونت دي مونتفورت، الذي كان وقتذاك يتولى حماية بلادهم لصالح الملك، وسأله أن يأتي ليرى جسد ربنا الذي تحول إلى لحم ودم في أيدي

الكاهن، فأجابهم الكونت قائلاً: «اذهبوا وانظروا إليه لأنفسكم، أنتم الذين لا تؤمنون به، أما بالنسبة لي فأنا مؤمن به بثبات، تماشياً مع تعاليم الكنيسة المقدسة حول القربان المقدس للمذبح»، وأضاف: «وهل تعرفون ما الذي سأكسبه في هذه الحياة الفانية، لتمسكي بالاعتقاد بما علمته الكنيسة المقدسة لنا؟ سوف أنال تاجاً في الجنة، وسيكون تاجاً أفضل من تاج الملائكة، لأنهم يرون الرب وجهاً لوجه، ونتيجة لذلك لا يمكنهم إلا أن يؤمنوا».

وحدثني الملك لويس أيضاً عن اجتماع عظيم لرجال الدين ويهود، وأن ذلك كان في دير كلوني، وكان هناك فارس فقير، كان راعي الدير يعطف عليه ويعطيه أحياناً خبزاً في سبيل محبة الرب، وسأل هذا الفارس راعي الدير عما إذا كان بإمكانه أن يتحدث أولاً، وقد استجيب لطلبه، لكن بعد شيء من التلكؤ، وهكذا انتصب واقفاً، واستند على عكازه، وطلب أن يمثل أمامه أهم حاخام وأكثرهم علماً بين اليهود، وجاء اليهودي على الفور، فسأله الفارس سؤالاً قائلاً: «هل يمكن أن تخبرني يا سيد فيما إذا كنت تعتقد بأن العذراء مريم، التي حملت بربنا في جسدها، ووضعت على ذراعيها، كانت عذراء وقت ولادته، وأنها بالحقيقة أم الرب» ؟

وأجابه اليهودي بأنه لا يؤمن بأي شيء من هذه الأشياء، وبناء عليه أخبر الفارس اليهودي بأنه تصرف تصرفاً أحقاً، حين لم يؤمن بالعذراء ولم يجبهها، ومع ذلك دخل إلى ذلك الدير، الذي هو بيتها، ثم صرخ الفارس قائلاً: «بحق السماء سأجعلك تدفع من أجل ذلك»، ثم رفع عكازه وضرب اليهودي ضربة، وقعت قرب أذنه، جعلته يقع لما فيه، ثم هرب جميع اليهود، وحملوا حاخامهم الجريح معهم، وبذلك انتهى المؤتمر.

وتوجه راعي الدير إلى الفارس، وأخبره بأنه اقترف حماقة كبيرة، فرد

الفارس بأن راعي الدير مجرم، لا بل أكثر حماقة، في دعوته لمثل هذا المؤتمر وحشده له، لأنه كان هناك عدداً كبيراً من المسيحيين، كانوا سينصرفون قبل انتهاء المناقشة، وسيحملون معهم لدى ذهابهم شكوكاً حول ديانتهم، من خلال عدم فهمهم الكامل لليهود، ثم قال الملك: «ولهذا أخبرك، أنه لا يتوجب على أحد المغامرة بالنقاش مع هؤلاء القوم، ما لم يكن لاهوتياً خبيراً، أما الرجل العلماني، فإن عليه عندما يسمح بتوجيه الإهانة للديانة المسيحية، ألا يحاول الدفاع عن عقائدها، إلا بسيفه، ويتوجب عليه أن يطعن به المجدف في جوفه، ويظل يدفع به إلى أقصى ما يمكن له أن يدخل» .

الفصل الثاني

خادم شعبه

أعدّ الملك لويس نهاره لأن يتملك في وسط انشغاله بشؤون مملكته وقتاً ليستمع إلى ساعات الغناء بوساطة جوقة كاملة، وإلى قداس Re- quem بدون موسيقى، بالإضافة إلى ذلك إذا كان الوقت موائماً، كان يستمع إلى قداس منخفض لليوم، أو قداس مرتفع في يوم جميع القديسين.

وكان يرتاح في كل يوم بعد الغداء في فراشه، وبعدما يكون قد نام ثم صحا كان يقوم مع واحد من شهاسته بقداس للموت في غرفته بشكل خاص، وكان يحضر في آخر النهار صلاة العشاء، ثم آخر الصلوات وتماها في الليل.

وجاء إليه مرة راهب فرنسيسكاني، لرؤيته في قلعة هيري Hyeres، حيث كنا قد نزلنا لدى عودتنا إلى فرنسا، وقد قال في قداسه المخصص للتوجيهات للملك بأنه قرأ في التوراة وفي الكتب الأخرى التي تحدثت عن الحكام غير المسيحيين، فلم يجد في التاريخ الخاص بشعوب الكفار أو شعوب المسيحيين أية مملكة فقدت حاكمها أو غيرته، إلا عندما كان يتم تجاهل العدل، وقال: «ولهذا على الملك العائد الآن إلى فرنسا أن يتنبه جيداً أنه يارس العدل تماماً وبشكل كامل بين شعبه، وبذلك يسمح له ربنا بأن يحكم مملكته بسلام حتى نهاية أيامه» ولقد أخبرت بأن هذا الرجل الصالح، الذي علم ملكنا هذا الدرس الوعظي يرقد مدفوناً في مرسيليا، حيث صنع ربنا من أجله، وما يزال يصنع كثيراً من المعجزات الكبيرة، وهو لم يوافق على البقاء مع الملك لمدة تزيد على يوم واحد، مع أن جلالته ضغط عليه بقوة حتى يبقى، وعلى كل حال، لم ينس الملك

مطلقاً موعظة الراهب الجيد، وحكم مملكته بشكل جيد، وبإخلاص وفقاً لشريعة الرب.

وكانت خطة المملكة المتبعة بالنسبة لمعالجة مسائل كل يوم، أنه كان يبعث خلف جين دي نيسل Nesles الذي كان الكونت الجيد لسواسون، ويبعث خلف بقيتنا، حالما نكون قد سمعنا القداس، ويخبرنا بالذهاب والإصغاء للتوسلات عند باب المدينة، الذي يدعى الآن باسم باب الالتماسات .

وبعدما يكون الملك قد عاد من الكنيسة، كان يرسل خلفنا، ويجلس عند طرف فراشه، ويجعلنا جميعاً نجلس من حوله، ويسألنا عما إذا كانت هناك قضايا لا يمكن فصلها من دون تدخله الشخصي، وبعدما كنا نخبره بالقضايا، كان يبعث خلف ذوي الشأن بالقضايا ويسألهم: «لماذا لم تقبلوا ما عرضه أصحابنا؟» وكانوا يجيبونه: «لأن الذي عرضه علينا قليلاً جداً»، وبعدها كان يقول: «إنكم ستحسنون صنعاً إذا ما قبلتم بكل ما هم على استعداد لإعطائكم إياه»، وهكذا كان ملكنا القديس يبذل قصارى جهده في إقناعهم بتبني تفكير منطقي.

وغالباً ما كان الملك يذهب في الصيف، بعد سماع القداس إلى غابة فنسن Vincennes، حيث كان يجلس ويسند ظهره إلى شجرة بلوط، ويجعلنا نجلس من حوله، وكان بإمكان كل من لديه قضية يريد تقديمها أن يأتي ويتكلم إليه بدون عوائق من حاجب أو أي شخص آخر، وكان الملك يخاطبهم مباشرة، ويسأل: «هل هناك من أحد لديه قضية تحتاج إلى حل؟» وكل من لديه قضية كان يقف، ووقتها كان يقول: «الزموا الصمت أنتم جميعاً، وسوف يستمع إليكم بالدور، واحداً تلو الآخر»، ثم كان يستدعي بيير دي فونتين Fontaines وغيوفري دي فيليت Villette، و يقول لواحد أو لآخر منهما: «فض هذه القضية لي»، وإذا ما رأى أي شيء يحتاج إلى التصحيح فيما قيل من

قبل الذين تحدثوا باسمه أو باسم أي شخص آخر، كان يتدخل ليقوم بالتقويم الضروري.

ورأيته في بعض الأحيان يذهب في الصيف ليتولى معالجة العدالة لشعبه في حديقة باريس العامة، مرتدياً مئزراً من الصوف الخالص، ومعطفاً خارجياً بلا أكمام، مبطن بالصوف، ورداء من قماش أسود حول كتفيه، وشعره ممشط بشكل دقيق، لكن من دون غطاء لتغطيته، وقبعة من ريش الطاووس الأبيض فوق رأسه، وكان يأمر بمدّ زربية حتى يمكننا الجلوس من حوله، ويقف كل من لديه قضية لعرضها أمامه، على مقربة، ثم كان يصدر حكمه على كل قضية، وكما أخبرتكم كان بالغالب يفعل هذا في غابة فنسن.

ورأيت الملك في مناسبة أخرى، في وقت قال فيه جميع أساقفة فرنسا بأنهم يرغبون بالحديث معه، وقد ذهب إلى قصره ليستمع إلى ما كانوا يودون قوله، وكان الأسقف غي أوف أوكسير Auxerre ابن وليم دي ميلو Mello بين الحضور، وقد خاطب الملك باسم جميع الأساقفة قائلاً: «يا صاحب الجلالة، وجهني السادة الروحانيون لهذه المملكة الموجودين هنا لأخبرنكم بأن قضية المسيحية، التي من واجبكم حراستها والدفاع عنها، تلقى الدمار على أيديكم» ولدى سماعه هذه الكلمات، رسم الملك علامة الصليب وقال: «أرجوك أخبرني كيف يمكن أن يكون ذلك؟»

فقال الأسقف: «يا صاحب الجلالة، هذا بسبب أنه في هذه الأيام، ينظر إلى الحرمان الكنسي باستخفاف، حتى أن الناس لا يهتمون فيما إذا ماتوا دون أن يطلبوا التحليل، ويرفضون إقامة مصالحة مع الكنيسة، ولهذا يطلب السادة الروحانيون، من أجل حبّ الرب، ولأن ذلك هو واجبكم، أن تأمروا عمالكم ونوابكم، أن يبحثوا عن الذين سمحوا لأنفسهم بالبقاء تحت الحرمان الكنسي لمدة سنة ويوم واحد، ومن ثم

إرغامهم على طلب التحليل، بوساطة الاستيلاء على ممتلكاتهم» .

وأجابهم الملك أنه على استعداد بكل رضا لإعطائهم مثل هذه الأوامر، شريطة أن يتمكن هو شخصياً من أن يرى بدون أي شك، بأن الأشخاص ذوي العلاقة مذنبين، وأخبره الأسقف بأن الأساقفة، في ظل أي ظروف لن يوافقوا على قبول هذا الشرط، لأنه يشكك بحقوقهم في إدارة أمورهم، وأجابهم الملك بأنه لن يفعل أي شيء غير الذي قاله، لأنه سيكون إجراءً ضد الرب، ومضاداً للحق وللعادل إذا ما أرغم أي إنسان على طلب التحليل، إذا كان رجال الدين مذنبين بحقه.

وتابع الملك يقول: «سأضرب لكم مثلاً أنقله من قضية كونت بريتاني، الذي أمضى سبع سنوات تحت الحرمان، وقد تظلم وعرض قضيته ضد أساقفة مقاطعته، ثم استمر في عرض قضيته حتى قام البابا بإدانته جميع خصومه، والآن لو أنني أرغمت في نهاية السنة الكونت على طلب التحليل، لكنت أذنبت ضد الرب، وضد الرجل نفسه»، وهكذا هيأوا أنفسهم لقبول الأمور كما كانت، ولم أسمع قط من تحدث عن أي مطلب جديد فيما يتعلق بهذه القضية.

وفي مسألة إقامة صلح مع إنكلترا، تصرف الملك لويس ضد نصيحة مستشاريه، الذين قالوا له: «يبدو لنا يا صاحب الجلالة أنك لست بحاجة للتخلي عن الأرض التي أعطيتها إلى ملك إنكلترا، ذلك أنه لا يمتلك الحق بها، لأنها أخذت بطريقة عادلة من أبيه»، وعلى هذا أجابهم الملك، بأنه مدرك تماماً بأن ملك إنكلترا ليس له حق بتلك البلاد، لكن هناك سبب شعر بأنه ملزم له بإعطائها له، وقال: «ألا ترون زوجتينا أختين، وأنه نتيجة لذلك أولادنا أولاد خالة، وهذا هو السبب الذي يجعل من الهام جداً بالنسبة لنا أن نكون بسلام فيما بيننا، يضاف إلى هذا أنني مجدداً زدت من تشریف نفسي وتمجيدها من خلال السلم الذي صنعته مع ملك إنكلترا، لأنه هو الآن تابع لي، مع أنه لم يكن

كذلك من قبل».

ومن الممكن التعرف إلى حب الملك للاستقامة وللتعامل الحر، واستنتاج ذلك من تصرفه في قضية واحد اسمه رينودي تريت Trit ، فقد أحضر هذا الرجل إلى الملك وثيقة تذكر بأنه، أي الملك قد منح منطقة دامارتين Dammartin في غولي Gouelle إلى ورثة كونتيسة بولوني المتوفاة، لكن ختم الوثيقة قد انكسر، ولم يبق منه سوى رجل الصورة الممثلة للملك، والمسند الذي أراح عليه قدميه، وأطلع الملك على الختم جميعنا نحن الذين كنا أعضاء في مجلس مستشاريه، وسألنا تقديم المساعدة له للوصول إلى قرار، وعبرنا نحن جميعاً عن رأينا بأن الملك ليس ملزماً بقبول الوثيقة، ثم طلب من كاتم سره جين ساراسين Sarrasin ، أن يناوله وثيقة كان قد طلبها منه، وما أن صارت الوثيقة في يده حتى قال لنا: «سادتي يوجد هنا الختم الذي استعملته قبل الذهاب إلى بلاد ماوراء البحر، ويمكنكم أن تذكروا بوضوح من النظر إليه أن الطبعة الموجودة على الختم المكسور تتشابه تماماً مع الموجودة هنا، ولذلك لا يمكنني بضمير صحيح الاحتفاظ بهذه المنطقة»، ولهذا بعث الملك خلف رينودي تريت وقال له : «إنني أعيد منطقتك إليك» .